

من الذاكرة..

د. محمد صابر عرب

في تاريخ كل الأمم ما يمكن تسميته بالتاريخ "العبئ" وهو التاريخ الذي تصنعه أمة ما، ويظل لصيفاً بها لا تستطيع الانفكاك منه، وعلاقة الإنجليز بتجارة الأفيون في آسيا تعد نموذجاً لهذا التاريخ العبئ.

لم تكن الصين تعرف الأفيون إلا بعد أن جاء إليها البرتغاليون والهولنديون مع بداية القرن السابع عشر، ومع مطلع القرن الثامن عشر قدم الإنجليز الذين اتخذوا من الأفيون تجارة رائجة، وكانت الهند أكثر دول العالم إنتاجاً للأفيون، وتوسع الإنجليز في زراعته والعمل على إيجاد أسواق لاستهلاكه.

لقد رأى الإنجليز أن الصين بلاد كثيفة السكان تصلح كسوق رائجة لترويج تلك السلعة مما اضطر حكومة بكين (١٧٣٩م) إلى إصدار مرسوم يحرم تلك التجارة، لكن الإنجليز قاوموا العمل بهذا المرسوم ومضوا في نقل الأفيون

من الهند إلى الصين بكميات هائلة، وحينما قاومت حكومة الصين شنت بريطانيا حرباً ضارية على الصين بحجة الدفاع عن حرية التجارة، واستطالت هذه الحرب التي سميت بحرب الأفيون الأولى (١٧٣٩ - ١٨٤٨م)، ومارس الإنجليز مذابح رهيبية في حق الصينيين الذين سحقت قواتهم مما اضطرهم إلى إبرام معاهدة نانكين Nankin التي تقرر بموجبها استيلاء بريطانيا على جزيرة هونج كونج، وأن يدفع الصينيون تعويضات هائلة لتجار الأفيون بحجة أنهم قد أضراروا في تجارتهم بسبب العمليات الحربية.

لقد مارست الحكومة البريطانية ضغوطاً سياسية واقتصادية على الصين لكي تسهل عمليات نقل الأفيون وتجارته باعتباره عملاً تجارياً مشروعاً، لكن إمبراطور الصين رفض كل هذه الضغوط قائلاً: "قد أكون عاجزاً عن منع هذه السموم من أن تدخل بلادي على كرهٍ مني، لكن ليس في العالم قوة تستطيع أن تغريني على أن أحصل على أموال مقابل تسمم شعبي ونشر الرذيلة فيه".

لقد اتخذ الإنجليز من مستعمرة هونج كونج مكاناً لإيواء التجار والمهريين، وأعدت مستودعات لتخزين الأفيون الذي راحت تنقله إلى الصين زوارق صغيرة مسجلة منحها سلطات هونج كونج ترخيصاً رسمية في حماية العلم البريطاني.

لقد افتعلت الإدارة البريطانية ذريعة لشن الحرب على الصين ثانية فيما عرف بحرب الأفيون الثانية (١٨٥٦ - ١٨٥٧م)، وأغارت القوات البريطانية على بلاد الصين وأمطرت سكانها بالقنابل ودمرت المدن والقرى وسحق الصينيون ودمر جيشهم، وكان من أهم نتائج تلك الحرب أن اتسعت مستعمرة هونج كونج بحيث لم تعد مقصورة على الجزيرة فقط؛ بل امتد نفوذ الإنجليز على السواحل المجاورة لها.

لقد أصبح الإنجليز متصلون مباشرة ببلاد الصين لا يحول بينهم مياه البحر الضيقة كما كان الحال من قبل، وأمام الضغوط والشعور بمرارة الهزيمة قبل الصينيون (١٨٥٨م) استيراد الأفيون وإباحة تجارته.

ويعلق كاتب إنجليزي على تلك الأعمال بقوله: "ليس في تاريخ بلادي صفحة تلحق بنا العار أشنع مما ألحقتها بنا وبتجارنا وساستنا قصة الاتجار في الأفيون مع الصين، إذا سردناها ببساطة من غير تهويل. فقد شنت إنجلترا عنوة على أرض صينية إغتصبتها اغتصاباً لكي نجعل منها مرفأً يعتصم به المهربون؛ الذين اتسعت تجارتهم وتزايد نشاطهم رغم أنف السلطات الصينية".

أعتقد أن الغرب وهو يعيد فتح صفحات جديدة مع الدول التي استعمرها وأذل شعوبها عليه أن يعتذر رسمياً عن المذابح والتجاوزات الهائلة التي كانت

سبباً في تخلف الدول التي تخلفت بقدر ما كان نهب خيرات هذه المستعمرات
سبباً في تقدم الدول التي تقدمت.

د. محمد صابر عرب
رئيس الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق
القومية